

الدفع

عناصر الموضوع

٨	مفهوم الدفع
١٠	الدفع في الاستعمال القرآني
١١	الألفاظ ذات الصلة
١٣	أسباب الدفع
١٨	مجالات الدفع
٢٩	وسائل الدفع
٤٧	عواقب ترك الدفع
٤٩	نتائج الدفع

مفهوم الدفع

أولاً: المعنى اللغوي:

دفع: الدال والفاء والعين أصل واحد مشهور، يدل على تنحية الشيء. يقال: دفعت الشيء أدفعه دفعًا، ودافع الله عنه السوء دفاعًا^(١).

والدفع: الإزالة بقوة^(٢). ومنه يتبين لنا: أن الدفع معناه: الإزالة بقوة لكل ما يعرض من ضرر وأذى، كدفع بلية، أو دفع سائل ونحوه، وهي تدل على عموم الإزالة والإزاحة، والدفع لكل ما يدفع أو يندفع، حتى إنهم يقولون: تدفع السيل واندفع، أي: دفع بعضه بعضًا^(٣).

والدفع إما أن يكون من الشخص لصالح نفسه، أي: يدفع الأذى عن نفسه، أو لصالح غيره، أي: يدفع الأذى عن غيره، كقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَّأَلُوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قَاتِلًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِ بَيْدٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُوا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَأَدْرَهُمَا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٧-١٦٨].

فإنه شمل أمرهم دفع أذى الكافرين عن أنفسهم، وعن إخوانهم من المسلمين بحسب الظاهر، والآية الأخيرة أمرتهم على سبيل التعجيز - إن هم خافوا الموت بامتنال الأمر بالدفع - أن يدفعوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين.

وقد يكون الدفع متبادلاً من شخصين أو فريقين؛ فيسمى حينئذ (دفاعاً)، و(تدافعاً)؛ للدلالة الدفاع والتدافع على الاشتراك في الفعل، فالأول فعله (دافع)، والثاني فعله (تدافع) مثل: (قاتل) و(تقاتل)، كلاهما يدل على المشاركة، ففي معنى التشارك ذكروا أن الصيغ (فاعل)، كخاصم، و(افتعل)، كاختصم، و(تفاعل) كتخاصم - تشترك كلها في هذا المعنى^(٤). ومنه تدافعوا الشيء: دفعه كل واحد منهم عن صاحبه. وتدافع القوم: دفع بعضهم بعضًا^(٥).

ومن خلال ما سبق عرضه من كلام أهل اللغة يتبين لنا أن كلامهم في معنى الدفع ومشتقاته يدور حول إزالة الشيء بقوة أو إزاحته بقوة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٨.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٢٧٤.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) نزهة الطرف في علم الصرف، الميداني ص ١١١-١١٢.

(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٧٤.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

الدفع إذا عدي بإلى اقتضى معنى الإنالة، نحو قوله تعالى: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

وإذا عدي بعن؛ اقتضى معنى الحماية، نحو: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].
وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠].
وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [٢] ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٢-٣].
أي: حام^(١).

تبين لنا مما سبق أن الدلالة اللغوية للدفع تدل على عموم الدفع لكل ما يدفع أو يندفع، أما الدلالة الاصطلاحية للدفع فسوف نقتصر فيها على بعض تلك الدلالة العامة فتكون: (دفع ما يلحق من الغير مما يعوق المسلم عن العمل للغاية التي خلق لأجلها، من كفر، وطغيان، وفساد، وشر، وإيذاء).

ويمكن أن يسمى ذلك (دفاعاً)، كما يمكن تسميته كذلك (دفاعاً، ومدافعةً، وتدافعاً)، باعتبار أن كلا من فريقَي الحق والباطل يدفع الآخر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الحج: ٤٠] يذكّر فيها اسمُ اللَّهِ كثيراً ولينصُرَكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحج: ٤٠] قرأ نافع بالالف وكسر الدال (دِفَاع) ^(٢)، على اعتبار أن كلاً من أهل الحق المصلحين، وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاتله ويدافعه ^(٣).

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣١٦.

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع، مكي بن أبي طالب ١/ ٣٠٤.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٤٩١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجهاد:

الجهاد لغة:

الجهاد: المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان، أو ما أطاق من شيء، والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود^(١).

الجهاد اصطلاحًا:

بذل الجهد واستفراغه في مدافعة العدو^(٢).

الصلة بين الجهاد والدفع:

جهاد الدفع نوع من أنواع الجهاد، والجهاد أعم صورًا.

قال الراغب: «والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس.

وتدخل ثلاثها في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

[الأنفال: ٧٢].

والمجاهدة تكون باليد واللسان^(٣).

٢ المحاجة:

المحاجة لغة:

والتحاج لغة: التخاصم، يقال: «حاجه محاجةً وحجاجًا: نازعه الحجة، وحجه يحججه حجاجًا: غلبه على حجته. وفي الحديث (فحج آدم موسى)^(٤)، واحتج بالشيء: اتخذه حجة^(٥).

(١) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٣٤.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٠٨.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم ٦١٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم ٤٧٩٣.

(٥) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٤٨٢.

فالمؤمنون أمرهم الله تعالى أن يدفعوا الكفر وأهله؛ لئلا يكون لهم العلو في الأرض؛ فيعبدوا الخلق لغير خالقهم؛ فأمر المؤمنين أن يجاهدوا الكافرين والمشركين؛ ليكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا؛ وكلمة الكافرين هي السفلى.

قال تعالى: ﴿وَقَنِيْلُوْهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُوْنُ فِتْنَةٌ وَيَكُوْنُ الدِّيْنُ لِلّٰهِ فَانِ اَنْهَبُوْا فَلَا عُدُوْنَ اِلَّا عَلٰى الظّٰلِمِيْنَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَنِيْلُوْهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُوْنُ فِتْنَةٌ وَيَكُوْنُ الدِّيْنُ كُلُّهُ لِلّٰهِ فَاِنْ اَنْتَهُمْ فَاِتَّوْا فَاتَّ اللهُ بِمَا يَمْعَلُوْنَ بَصِيْرًا﴾ [الأنفال: ٣٩].

وإذا صار الدين كله لله؛ ترتب على تحقيق ذلك كل الخير للعباد؛ مما سنكشف عنه في نتائج الدفع من حرية المعتقد، وحرية العبادة وأمكتتها، وإحقاق الحق، ورفع الظلم، وتمكين الحق وأهله، وخذلان الباطل وأهله.

ثانياً: أسباب الدفع عند الكافرين:

إذا كانت أسباب الدفع عند المؤمنين تنطلق من منطلق إيمانهم وطاعتهم لله رب العالمين، وتحقيق عبوديته؛ فإن أسباب الدفع عند الكافرين تنطلق من منطلق كفرهم بالله، وسخطهم، وعداوتهم للمؤمنين به، ومحاولة ردتهم، وصددهم عن سبيل الله،

أسباب الدفع

تحدث القرآن الكريم عن أسباب الدفع عند المؤمنين وعند الكافرين، وسوف نتناول في النقاط الآتية:

أولاً: أسباب الدفع عند المؤمنين:

لما كانت غاية المؤمنين هي عبادة الله تعالى، وامثال أوامره كانت تلك الغاية هي المحرك الأول لهم في جميع أمور حياتهم؛ ومن ثم فإن أهم أسباب الدفع لديهم هي:

١. تعبيد الناس لرب العالمين وحده.

وقد كانت هذه الرسالة واضحة في جهاد الصحابة وفتوحاتهم المجيدة، فهذا ربي بن عامر يحمل دعوة الإسلام للفرس، ويدخل على ملكهم، غير هياب، ولا وجل، «فقال له رستم: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا، وجاء بنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؛ فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»^(١).

٢. نصرة الدين، وأن يكون الدين كله لله.

(١) الاكتفاء بما تضمنته من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء، الحميري، ٤٥٨/٢.

وإفسادهم، وإشاعة الفاحشة بينهم.

ومن أهم تلك الأسباب:

١. محاولة إطفاء نور الله تعالى بإشاعة الكفر، وإفساد عقيدة المسلمين.

لعل هذا يعد من أعظم أسباب دفع الكافرين المؤمنين، وقد يبدو ذلك مستغرباً؛ إذ قد يظن البعض أنه لا فائدة من ورائه لهؤلاء الكافرين، ولكنه الحقد - أولاً وقبل كل شيء - هو الذي يحرك أعداء المسلمين في قتالهم، ودفعهم، ورجبتهم في القضاء عليهم، ومحاولة إطفاء نور الله، ومحو كل مظاهر الإيمان وسلوكيات الطهر التي تذكرهم بجرائمهم، وتنكبهم عن سواء الصراط؛ ثم تأتي بعد ذلك بقية الأسباب من الاستحواذ على ثرواتهم ومقدراتهم وغير ذلك.

وقد أخبر سبحانه عن مدى عداوة هؤلاء الكافرين للمؤمنين، كاشفاً عن أسباب قتالهم إياهم، مبيناً أن أعظم تلك الأسباب هو إفساد المؤمنين بدفعهم عن الإيمان إلى الكفر، وأن يردوهم عن دينهم حسداً وبغياً.

فقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[البقرة: ٢١٧].

وأخبر تعالى عن مكنون صدورهم في ذلك، وأن عداوتهم للمؤمنين ما هي إلا بغى وحسد فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَرِفُوا بِمَا كَفَرُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[البقرة: ١٠٩].

كما بين سبحانه أنهم ما كفروا إلا بعد معرفتهم بالحق واستيقانهم به، وأنهم ما فعلوا ذلك إلا بغياً على أنبياء الله تعالى وأتباعهم من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقِنَاَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ يَسْكَمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩ -

٩٠].

وهم في ذلك كله يحاولون جاهدين أن يطفئوا نور الله بأفواههم؛ حتى لا يكون ثم إيمان، ولا مؤمنون.

وهذا واضح بين كشف الله تعالى عنه في كتابه، ووضحه للمؤمنين؛ حتى يعرفوا

صلى الله عليه وسلم إلا لدفع الكفر وأهله؛
ليظهر دين الحق على الدين كله، ولو كره
المشركون.

وجاء نحو ذلك في سورة الصف كذلك،
فقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ
مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينٍ لِّمَن لَّا يَظْهَرُهُ عَلَى الَّذِينَ كَلَّمَهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ تَحْزِيرِ
تُحْجِرُكَ مِنَ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
لَتَقَاتِلُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف: ٨-١١].

حيث أخبر سبحانه عن أسباب وغايات
الدفع عند هؤلاء الكافرين، ثم أتبعها بتهميج
المؤمنين على دفع منكرهم وباطلهم؛ جهادًا
في سبيل الله.

٢. إفساد أخلاق المؤمنين.

من الثابت لدى أهل الإسلام ارتباط
الأخلاق بالعقيدة الصحيحة؛ فالإيمان بالله
ورسوله هو القاعدة والأساس الذي تنطلق
منه جميع الأعمال الصالحة عند المسلم؛
وذلك أن الدين كله عقيدة وشريعة وأخلاقًا
وأدبًا تنتظمه منظومة واحدة، هي منظومة
العبودية والخضوع لله رب العالمين.

وهذا هو ما يؤكد النبي صلى الله عليه
وسلم حيث يقول: (من كان يؤمن بالله
واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن
بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان

أعداءهم، فقال سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا
حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ
عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ
عِزِّيُّ بْنُ أَبِي اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ
ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾
اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا
أُمُورًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَىٰ وَدِينٍ لِّمَن لَّا يَظْهَرُهُ عَلَى الَّذِينَ
كَلَّمَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة:

٢٩-٣٣].

فأمر سبحانه بقتالهم؛ لدفع فسادهم
وكفرهم وعقائدهم الباطلة في عبادة غير
الله تعالى، كعزير والمسيح عليه السلام
حيث يريدون إطفاء نور الإيمان الواضح
المبين الذي أرسل الله به رسله أجمعين،
ودعوة الناس للكفر الواضح المبين من
عبادة غير رب العالمين.

ويبين في مقابل ذلك أنه ما بعث رسوله

يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت^(١).

فراه صلى الله عليه وسلم يربط ربطاً وثيقاً بين الأخلاق والإيمان بالله واليوم الآخر، ومن ثم إذا ما انهارت العقيدة - وهي الحصن الحصين للإسلام، وهي واسطة عقد نظامه -؛ لا شك ينهار هذا البناء، وينفطر عقد هذا النظام، ومن ثم جهد أعداء الإسلام على إحداث خلل كبير في أمر العقيدة عند كثير من الناس، في كثير من المجتمعات الإسلامية؛ مما يؤدي تلقائياً إلى تردي أخلاق هؤلاء الذين أصابهم الخلل في عقيدتهم، ومن ثم ينهار بنيان المجتمع بكامله.

وليس عجباً أن يربط الله تعالى في سورة من قصار السور بين الوصف بالتكذيب بالدين، وبين القسوة على اليتيم والمسكين، ليلفتنا إلى أثر العقيدة في سلامة الخلق.

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ وَلَا يُحِصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ وَيَسْمَعُونَ لِمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦-٧].

إذن فالإيمان بالدين، وهو الحساب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ١١/٨، رقم ٥٧٨٥.

والجزاء، وإكرام اليتيم، والحض على طعام المسكين، والمحافظة على الصلاة في أوقاتها، وتقديم الماعون لأهله.. كل ذلك تشمله منظومة واحدة متكاملة، ويرجع إلى أصل واحد، وهو الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر.

ولذلك تجد أغلب الأوامر والنواهي التي تدعو إلى جميل الخصال، وتنهى عن رذيل الأحوال، تصدر كلها بنداء الإيمان ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءٰمَنُوا﴾، وذلك كما في سورة الحجرات على سبيل المثال.

وقد أصبحت أغلب المجتمعات اليوم -بفعل دفع أعداء الإسلام بكثير من صور الإفساد الأخلاقي- تعج بمظاهر الفظاظة والغلظة والقساوة وسوء الأخلاق، وصار من الأمور المألوفة في شوارع المسلمين وسككهم، ما يؤدي الأذان من السب والقذف والصخب والفحش، وما يؤدي الأعين من مظاهر التبرج والسفور والسكر والعهر والاختلاط المحرم، وكثرة الأذى في سبيل الناس وطرقهم، ورؤية المدمنين من متعاطي الخمر والمخدرات، وما يركم الأنوف من دخان التبغ وغيره، وما يؤدي الضمائر والأنفس من فساد المعاملات وانتشار الرشوة والربا والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل، وما يدمي القلوب من العقوق وقطع الأرحام وتفشي التدابر والتقاطع بين

الأهل والجيران وسائر الإخوان.

تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿النساء: ٢٧﴾.

ومن ثم توعدهم الله تعالى على ذلك بعذاب أليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿النور: ١٩﴾.

كل ذلك يستدعي ضرورة المسارعة للدفع المقابل؛ لإنقاذ مجتمعات المسلمين من برائن ذلك الفساد الخلقي، المؤذن بخراب تلك المجتمعات وانهارها مما أشاعه أعداؤهم في مجتمعات المسلمين، لا يألونهم خبالاً؛ لأنهم دائماً يودون ما يعنتهم، ويوقعهم في الموبقات والمهلك.

٣. الحرص على التحكم في العباد ومقدرات الشعوب واستحواذ ملذات الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنْجِدُوا إِيَّانَا مِنَ دُونِكُمْ لَا يَأْتُونَنَا خَبَالًا وَدُؤًا مَاعِنْتُمْ فَذَرُوا الْبَغْضَاءَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخَفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿١٣٨﴾ هَاتِنْتُمْ أَوْلَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا عَيْتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣٩﴾ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَكِيمٌ ﴿آل عمران: ١١٨-١٢٠﴾.

الكافر لا يؤمن بالآخرة؛ ومن ثم فهو لا يطلب إلا الحياة الدنيا، ولا يريد سواها، وفي سبيل ذلك يدافع ويقاقل؛ فقد زينت له بشهواتها وأعراضها الزائلة؛ فتكالب عليها، وقاتل لأجلها، ولم ير لأحد حق فيها سواه. قال تعالى: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿البقرة: ٢١٢﴾.

وقال سبحانه: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ﴿آل عمران: ١٤﴾.

كما أخبر أن أعظم تلك الأسباب أيضاً هو إفساد المؤمنين بإشاعة الفواحش فيهم، ودعوتهم للميل عن دينهم الحق الذي يأمرهم بزكاة نفوسهم، واستقامة أخلاقهم إلى سبيل الفواحش والشهوات.

وفي سبيل تحقيق تلك الشهوات والمآرب الدنيئة يطغى ويستكبر، ويعيث في الأرض فساداً، والله لا يحب الفساد.

فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ

مجالات الدفع

أولاً: الكفر والإيمان:

لا يزال الصراع والتدافع بين الكفر والإيمان منذ بدء الخليقة مستمراً حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ وذلك منذ نشأت العداوة بين إبليس وآدم، وقد حذر الله آدم وزوجه، ومن ثم ذريتهما من بعدهما من عداوة إبليس؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَتْنَيْهِ وَلمَّ نَحْنُ لَهُ عَزَمًا﴾ (١٥) ﴿وَإِذ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ (١٦) ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٧) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ (١٨) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ (١٩) ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْغُلْبَةِ وَمُتَّكِلًا عَلَيْهِ لَا يَبْلَىٰ﴾ (٢٠) ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَا لهُمَا سَوءًا لَهُمَا وَطِيفًا يَمْخِضَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رِيقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ اجْنَبْنَا رَبَّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (٢٢) ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَمِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٥-١٢٣].

فمن ثم تأسست العداوة في الأرض بين إبليس وذريته، ومن أعانه من شياطين الإنس والجن من جهة، وبين آدم وذريته ممن أطاع الله تعالى، واتبع سبيل المرسلين من جهة

قال سبحانه في المنافقين الذين أظهروا الإيمان، ويطنون الكفر والعداوة للمؤمنين، ويمالئون عليهم أعداءهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ أَنَّهُ مِنَ الَّذِينَ إِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقَ﴾ (٢٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

وقال تعالى مبيناً سبب إفساد الكافرين في الأرض، وأنه يرجع إلى طغيانهم واستكبارهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (٦) ﴿إِذْ ذَاتَ الْعِمَادِ﴾ (٧) ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (٨) ﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ (٩) ﴿وَقِرْعُونَ﴾ (١٠) ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾ (١١) ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٢) ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ (١٣) ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (١٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفرج: ٦-١٤].

وهؤلاء الكافرون يرون أنه ليس لأحد حق في هذه الحياة الدنيا وطيباتها سواهم، ومن ثم فهم يزاحمون المؤمنين فيها ويدفعونهم عنها، والله تعالى ما أحل هذه الطيبات إلا للمؤمنين؛ ولذا يجعلها خالصة لهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

أخرى. لا جرم من أن يعين إبليس وجنده أهل الكفر والضلال من بني آدم المفسدين في الأرض، من الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله، من نعتهم الله بشياطين الإنس فقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَلِنَصِّحِ إِلَىٰ أَعْيُنِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْرَأُوا مَا هُمْ مُقَرَّبُونَ ﴿﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ قَضَلْنَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَأَيْدِنَاهُ رُوحَ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومن ثم صار الناس حزينين لا ثالث لهما: حزب الله، وحزب الشيطان، وقد وصف الله حال الفريقين بقوله: ﴿أَسْتَعِذُّ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أَوْلِيَّتِكَ يَحْزَبُ الشَّيْطَانُ إِلَّا إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْمُتَسِرُّونَ ﴿١١﴾ إِنْ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلِيَّتِكَ فِي الْأَذْلَيْنِ ﴿١٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلِيَّتِكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١١﴾ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَوْلِيَّتِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أَوْلِيَّتِكَ حِزْبُ اللَّهِ إِلَّا إِنْ حِزَبَ اللَّهُ هُمُ الْفَاقِلُونَ ﴿﴾ [المجادلة: ١٩-٢٢].

كما أياس الله تعالى المؤمنين من أن يبلغوا رضا أعدائهم، أو أن يسالموهم؛ فيكفوا دفعهم وأذاهم الدائم لهم؛ فهم لا يرضون عن المؤمنين أبداً حتى يتبعوا ملتهم الباطلة، ولا يزالون يقاتلونهم حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

قال تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا

ودارت رحي الحرب بين الفريقين؛

النَّصْرَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ
الْمُتَدَيُّ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ
الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿البقرة: ١٢٠﴾

ثانيًا: الخير والشر:

لقد خلق الله الإنسان، وركب فيه نوازع
الخير والشر، وخيره بين اتباع أي منها؛
ولكنه رتب الفلاح والنجاح على تزكية
المرء لنفسه إذا عمل بالخير ودعا إليه،
ورتب الخيبة والخسران على تدنيس النفس
بالشر إذا عمل به ودعا إليه؛ فقال سبحانه:
﴿وَقَسِرْ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا
﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّسَهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وكما يتصارع ويتدافع أهل الإيمان وأهل
الكفر منذ بداية الخليقة؛ يتصارع كذلك
دعاة الخير ودعاة الشر كذلك، ودعاة الخير
الحقيقيون هم المؤمنون، كما أن دعاة الشر
هم الكافرون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١١﴾ إِذَا
مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿١٣﴾
إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿١٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ
﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿١٦﴾ لِلسَّائِلِ
وَالْمَحْرُورِ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ
هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ
مَأْمُونٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يُرْجَوْنَ هُمْ يُحْفَظُونَ ﴿٢١﴾ إِلَّا عَلَنَ

أَرْوَجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٢٢﴾
فَمَنْ آتَيْنَاهُ رِزْقًا فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِأَمْنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ
﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٢٦﴾ أُولَئِكَ فِي
جَنَّتِ مَكْرَمُونَ ﴿المعارج: ١٩-٣٥﴾.

فالمؤمنون المصلون هم أهل الخير
﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٢﴾ لِسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾،
﴿يُرْجَوْنَ هُمْ يُحْفَظُونَ ﴿٢٣﴾ إِلَّا عَلَنَ أَرْوَجِهِمْ أَوْ
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، وأنهم
﴿لِأَمْنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾، وأنهم ﴿بِشَهَادَتِهِمْ
قَائِمُونَ﴾.

والكافرون المكذبون بيوم الدين بعكس
ذلك، هم أهل الشر ترى أحدهم ﴿هَلُوعًا
﴿١١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ
مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]، ﴿يَدْعُ الْيَتِيمَ
﴿٢﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣-٢].

ومن ثم تواعد الله أهل الخير المؤمنين
المصلين أن يتصفوا ببعض صفات أهل
الشر المكذبين فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ
﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ
هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَسْمَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

ولما كان المؤمنون هم أهل الخير؛
دعاهم الله تعالى ليس إلى مجرد فعله؛
بل أمرهم مع ذلك بدعوة الناس إليه، فقال
تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ

رهبهم لهم في ذلك بدعوة الناس إلى الخير، وحثهم عليه ونشره بينهم، والكافرون أهل الشر عبید الشهوات، همهم ورغبتهم أن يحولوا المجتمعات إلى مجتمعات تائهة، ينسلخ فيها الأفراد حتى من ثوب الإنسانية؛ لينحطوا إلى درك من البهيمية، مطلق من كل عقال ديني أو أخلاقي أو اجتماعي، متدثرين بشعارات خداعة من الحرية والتمدن والتحضر وغيرها من شعاراتهم الكاذبة، والتي هي في حقيقتها ليست سوى أسماء أخرى للشهوة المرادة في الآية^(٢).

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وهم لا يريدون سوى إشاعة الفواحش والفجور في مجتمع المؤمنين بشتى الصور والوسائل؛ ومن ثم توعدهم الله تعالى على ذلك بعذاب أليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وانظر كيف صور سبحانه حال عباد الرحمن، وأثنى عليهم، ووعدهم على ذلك الجنة، بادئاً في الشئاء عليهم بحسن أخلاقهم مع الخلق، وجميل أوصافهم في معاملاتهم وسلوكهم، مقارناً بينهم وبين

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/٦٣١.

يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالمؤمنون هم دعاة الخير الحقيقيون، أو هم الجديرون بذلك؛ لأن الإيمان بالله تعالى يأخذ بيد العبد إلى الخير كله، ولا يزال المرء على خصلة من الخير؛ حتى تأخذ بناصيته إلى البر كله، ولا يزال المرء على خصلة من الشر؛ حتى تأخذ بناصيته إلى الشر كله.

وعن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)^(١).

ويتصارع الفريقان أهل الخير وأهل الشر في إرادة الخير أو الشر بالناس، ونشره بينهم؛ فالمؤمنون أهل الخير ممثلون أمر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)، ٨/٢٥، رقم ٦٠٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، ٤/٢٠١٣، رقم ٢٦٠٧.

رُحِرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ
وَمَا يَفْقَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَلِيَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ
مُقْتَرِفُونَ ﴿[الأنعام: ١١٢-١١٣].

ثالثًا: الحق والباطل:

قضى الله بحكمته وعدله أن يخلق الناس
فريقين: أهل حق، وأهل باطل، أهل هدى،
وأصحاب ضلالة ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ
عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ
مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿[الأعراف: ٣٠].

والقضية محسومة، أهل الإيمان هم أهل
الحق؛ ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَّلَ
عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ ﴿[محمد: ٢].

والذين كفروا هم أهل الباطل، وقد كتب
الله الفوز والسعادة وصلاح البال للمؤمنين
أهل الحق، وكتب الخزي والضلال وحبوط
الأعمال للباطل وأهله، وأوجب على
المؤمنين مدافعتهم بكل ما أوتوا من قوة؛
حتى إذا لقوهم في الحرب فليس لهم إلا
القتال وضرب الرقاب، ثم شد الوثاق.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ
اللَّهِ أَضَلَّ أَعْيُنُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن
رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ

أهل الشر الكافرين، الذين أبوا السجود
لأرحم الراحمين، فقال سبحانه: ﴿الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلَّ بِمِدْحَةٍ
﴿٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٤﴾ نَبَارَكَ
الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا
وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَلَّلَ الْآيَةَ وَالنَّهَارَ
خَلْفَهُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا
﴿٦﴾ وَيَعْبُدُ الرَّحْمَنَ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ
هُونًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ﴿٧﴾
الآيات، إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ
يُجْزَوْنَ الْعُرْقَةَ يَمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا
نَجْمَةً وَسَلَمًا ﴿٧﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿[الفرقان: ٦٠-٧٦].

فعباد الرحمن هم خير الناس للناس،
هينون لينون، بعيدون عن كل لغو ولغو
وجدال وشقاق، قال سبحانه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى
الْأَرْضِ هُونًَا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا
سَلَمًا ﴿[الفرقان: ٦٣].

ويتصارع الفريقان إلى يوم القيامة: فريق
يحب الخير للناس ويدعو إليه، وهم الرسل
وأتباع الرسل، وفريق يريد الشر للناس
ويدعو إليه، وهم أولياء الشيطان وأعداء
الرسل.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
شَيْطَانِيًّا الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

مَنْ يَنْقُضِ النَّاسَ فَيَمُتْكَ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ [الرعد: ١٧].

فالباطل لا يبقى ولا يدوم، بل الحق هو الذي يدفعه ويدمغه ويقضي عليه، فهو لا يثبت أمام الحق، وصدق سبحانه القائل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ رَجِئْتُ يَدْفَعُ بِالْحَقِّ عَلَنُ الْقُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٨-٤٩].

سنة ثابتة إذا أن تكون الغلبة للحق وأهله، وأن يندحر الباطل وأهله، ولم لا، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿وَمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ١٩ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

ومن ثم فلا بد من خسران الباطل وأهله، ولو كان ذلك في الجولة الأخيرة؛ فهم خاسرون لا محالة، بهذا قضت سنة الله تعالى: ﴿قُلْ كَفَرْنَا بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ

مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٢﴾ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَنُمُوهُمْ فَشَدُّوا الرِّقَابَ فَإِنَّمَا مَتَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءُ حَتَّى تَضَعَ الرِّقَابَ أَوْ زَادَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبِّئُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمْ رَبَّنَا عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصَرُوا اللَّهُ يَضْرِبْكُمْ وَيُنَبِّئُ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَا لَهُمْ وَالضَّلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١-٩].

والحق هو سلاح المؤمنين في دعوتهم إلى الله، كما أن الباطل هو حجة الكافرين الداحضة، يجادلون بها؛ ليدحضوا الحق.

قال تعالى: ﴿مَا يَجْدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴿٤﴾ كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نوح وَالْأَحْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٤-٥].

هكذا قضت سنته سبحانه أن يتصارع الحق والباطل، ويتدافعان إلى يوم القيامة، ولكنه كتب الغلبة والنصر والبقاء للحق وأهله، وضرب لكل مثلاً؛ فقال سبحانه: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ النُّعْلَةِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا

أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿العنكبوت: ٥٢﴾.

رابعاً: الظلم والعدل:

صراع الظلم والعدل ليس مقصوراً على صراع الكافرين مع أهل الإيمان - وإن كانوا هم أكثر الناس ظلماً-، وإنما قد يقع من بعض الفسقة والمبتدعة والعصاة من أهل الإيمان.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره، ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم، وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام؛ لم يجز الاستغفار لهم؛ فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع»^(١).

والحق أن الظلم مذموم من جميع الخلق - مؤمنهم وكافرهم-، بل يلحق المؤمن بذلك أعظم الذم؛ لأن الإيمان ينافي الظلم ويناقضه؛ إذ مبناه على الحق والعدل، و«جماع الحسنات العدل، وجماع السيئات الظلم»^(٢).

وإذا دب الظلم في ملك؛ أفسده وأذهبه، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وأمر الناس تستقيم في الدنيا مع العدل، الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق - وإن لم تشترك في

إثم-، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، فالباغي يصرع في الدنيا - وإن كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة-، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل؛ قامت - وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق-، ومتى لم تقم بعدل؛ لم تقم - وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة-، فالنفس فيها داعية الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له، والتعدي عليه في حقه»^(٣).

وليس معنى ذلك أن يخرج الناس على حكاهم إذا ما أقاموا فيهم كتاب الله وسنة رسوله، أو دون نظر في العواقب، وما يتبع ذلك من المفاسد العظام، «وقد قيل: ستون سنة بإمام ظالم، خيرٌ من ليلة واحدة بلا إمام»^(٤).

ولما كان الظلم والبغي قد يقع من أهل الإيمان؛ حتى يحصل الاقتتال بين الطائفتين من المؤمنين أمر الله تعالى أهل العدل والإصلاح دفع هذا الظلم والبغي، بالعمل على الإصلاح بين الطائفتين، ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ [الحجرات: ٩]؛ فقد

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية ص ٢٩.

(٤) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٥١٨/٢.

(١) الحيدة، عبد العزيز الكنانى ص ١٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٨٦.

وقد أمر الحق سبحانه بإقامة العدل والحق والقسط والميزان في كل شيء؛ فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا وِزْرًا وَلَا تَوْسِعُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

وقد أمر بذلك الرسل أقوامهم. قال سبحانه: ﴿وَإِلَى مَدِينَتِكُمْ يُنْفِرُ أَبْنَاءُ اللَّهِ يَصَلُّونَ فِيهَا يَأْتِينَهَا خَائِفِينَ لَوْلَا أَن يَرْجُمُوا فِيهَا أَوْ يَنْصَبُوا فِيهَا يُدْرِكُوا الْهَيْجَانَ وَالْأَحْمَادَ أُولَئِكَ خَمِلُوا عَلَيْهِمْ نَصِيبًا مِمَّا كَسَبُوا﴾ [الحج: ٢٥].

وقد توعد المطففين في الكيل والميزان

أمر بقتال ﴿الَّذِي تَبِغَىٰ حَقًّا نَفْيًا إِلَٰهَ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَآهَةً﴾؛ وجب الإصلاح ﴿بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ والقسط.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ مِنَ الْمُتُؤِمِّنِينَ أَقْتُلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَىٰ فَتَقَاتِلُوا الَّذِي تَبِغَىٰ حَقًّا نَفْيًا إِلَٰهَ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَآهَةً فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقد تكلم العلماء في أحكام دفع البغي ومقاتلة البغاة تفصيلاً في كتب الأحكام - وليس هذا مقامه -، وتكلموا في حكم دفع الصائل الباغي، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وأما دفع الصائل على النفس الذي يريد قتل المعصوم بغير حق إذا لم يكن القتال في فتنة فهل يجب دفعه؟ فيه قولان هما روايتان عن أحمد: أن الممكن ليس بفاعل، بل ولو أراد مريد قتله؛ وجب عليه ذلك، كما يجب عليه الأكل من الميتة عند المخمصة، فكما يحرم عليه قتل نفسه؛ يجب عليه فعل ما لا تبقى النفس إلا به من طعام وشراب ودفع ضرر بلباس ونحو ذلك، فإذا أمكنه الهرب ونحوه؛ وجب عليه ذلك، وأما إذا كان دفع الصائل عن نفسه يحتاج إلى قتال الصائل فهنا فيه محذور آخر - وإن كان جائزاً - وهو قتل الآخر؛ فهذا خرج الخلاف في وجوب دفعه عن نفسه»^(١).

(١) الاستقامة، ابن تيمية ٢/٣٢٧.

وامتدح الذين يصلحون، وينهون عن الفساد في الأرض فقال: ﴿قُلْ لَآ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمُ وَأَتَّبَعْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

التدافع والصراع بين الفساد والصلاح صورة من صور سنة التدافع، وهو ليس مقصوراً على التدافع بين الكافرين والمؤمنين؛ إذ إن صدور الفساد ليس مقصوراً على الكافرين؛ بل قد يقع من بعض المسلمين وممن يندس فيهم من المنافقين كذلك، وإن كان أكثر ما يقع إنما يقع من الكافرين ومن تولاهم من المنافقين. وقضت سنة الله الكونية والشرعية أن يقع التدافع بين أنبياء الله ورسله وأتباعهم من جهة، وبين أقوامهم من الكافرين المعاندين المحادين لله ورسله من جهة أخرى، وهذا ما حكاه لنا القرآن عن سائر رسل الله وأنبيائه.

قال تعالى عن التدافع بين شعيب وقومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْجَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَتَوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ

ظُلْمًا وَبِغْيًا؛ لِيَأْخُذُوا مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَبْظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَقُلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾﴾ [المطففين: ١-١١].

فتوعدهم ربهم بعذاب عظيم على ذلك الظلم المبين، وأتبع ذلك بيان جزاء الذين يكذبون بيوم الدين، لما كانوا هم أكثر الناس ظلماً لغيرهم.

خامساً: الفساد والصلاح:

أمر الله عباده بطاعته التي فيها صلاح دنياهم وآخرتهم، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بالعمل بغير شريعته، فقال سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ فِيْمَاءَ أَمَلِكِ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبِغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾
[هود: ٩١].

فذكرهم شعيب بالله، وقد نسوه
واتخذوه وراءهم ظهرياً، وبين لهم أنه ثابت
على دعوته غير آبه بتهديدهم، متوكل على
ربه: ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَرْهَطِيْ أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنْ
اللَّهِ وَأَتَّخِذْتُمُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي
يَمَّا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْقُورُ أَعْمَلُوا
عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَائِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ
وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ [هود: ٩٢-٩٣].

وقد فصل الله تعالى فسادهم وإفسادهم
في الأرض وصددهم من آمن عن سبيل الله
في سورة الأعراف فقال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ
أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ
مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرِهِ قَدْ جَاءَتْكُمْ
بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
﴿٩٤﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ
وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ
بِهِ وَتَجْعَلُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكَرُوا إِذْ
كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴿٩٥﴾ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٦].

بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا
تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٩٥﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِحَفِيظٍ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَنْشَعِيبُ أَصْلُوتُكَ
تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ
فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِي لَكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ
﴿٩٧﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ
رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ
إِلَى مَا أَنهَيْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَقَمْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ ﴿٩٨﴾ [هود: ٨٤-٨٨].

فقد أمرهم بترك الإفساد في الأرض
بنقص المكيال والميزان، وبخس الناس
أشياءهم، ونهاهم أن يعيثوا في الأرض
مفسدين، وبين لهم أنه ما يريد بذلك إلا
الإصلاح بفعل ما فيه نفعهم وصلاح
أمرهم، لكنهم أبوا إلا شقاؤه ومدافعته عن
دعوته، وتبليغ رسالة ربه؛ فحذرهم مغبة
ذلك الشقاق بقوله: ﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ
قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ
بِعَدِلٍ ﴿٩٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ
إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿١٠٠﴾ [هود: ٨٩-٩٠].

ولكن ما زادهم ذلك إلا شقاقاً وتعتاً
ومدافعة لشعيب عن تبليغ رسالة ربه،
وتهديده بالرجم لولا رهطه: ﴿قَالُوا يَنْشَعِيبُ
مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا

الرخيص الذي يؤجج الشهوات، أو البرامج المشككة في الدين التي تثير الشبهات في صور ووسائل عديدة، يتفنن أعداء الإسلام في اختراعها يوماً بعد يوم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْفَاءِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهم في ذلك يحاولون عبثاً ﴿أَنْ يَطْوِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشِيرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٣) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا. [التوبة: ٣٢-٣٣].

ونستطيع القول: إن أعداء الإسلام قد كسروا عن أنيابهم بكل صور العداوة للإسلام وأهله منذ اللحظة الأولى التي انطلقت فيها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

«قال أبو عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً، حتى نزلت: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]. فخرج هو وأصحابه» (١).

كانت هذه الصيحة من النبي صلى الله عليه وسلم بمثابة الإعلان عن هذه الدعوة، فبدأ ضعفاء الناس يتسللون إليها، ومنذ ذلك اليوم أعلنت العداوة السافرة بين حزب

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٧/١٤.

وسائل الدفع

تختلف صور الدفع ووسائله بين المؤمنين والكافرين والمنافقين؛ فيعتمد الكافرون والمنافقون كل وسيلة من الوسائل غير متقيدين لله بطاعة ولا شريعة؛ فيستبيحون إثارة الفتن والقتال، وإثارة الشهوات، وإشاعة الفواحش، ورتذيل الأخلاق، واستباحة القتل والدماء وصنوف التعذيب بغير جريرة من المؤمنين مما فصله القرآن في مواضع كثيرة.

أما المؤمنون فمتقيدون بشرع ربهم، منطلقون في كل أعمالهم من قاعدة إيمانهم، فلا فحش ولا غدر ولا رذيلة، ولا يأتون إلا ما شرع الله وشرع رسوله صلى الله عليه وسلم.

أولاً: وسائل الدفع لدى الكافرين والمنافقين:

١. الدفع بإثارة اللغو والتشويش. إثارة اللغو والتشويش على الدعوة الإسلامية هي دأب الكافرين والمنافقين في كل زمان ومكان، إما بالتشويش باللغو الساذج المتعمد قديماً، وإما بالتشويش باللغو الذي تفنن فيه أعداء الإسلام في تقديمه في صور عديدة حديثاً للتشويش على صوت الحق، إما في صورة الفن الهابط

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ [آل عمران: ٧٢-٧٤].

«ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد في أول النهار، ثم اكفروا به آخره؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه ارتياب في دينه، فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون: إن أهل الكتاب أعلم به منا»^(٢).

وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ صِرْطَ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

فهذه الآية وما بعدها من الآيات إنما نزلت لتعليم المؤمنين، كيف يحاورون الطاعنين على الدين، وكيف يردون شبهاتهم، حينما استغلوا حادث تحويل القبلة لتشكيك المسلمين في عقيدتهم.

قال الإمام ابن كثير: «قيل: المراد بالسفهاء هاهنا مشركو العرب، قاله الزجاج، وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد، وقيل: المنافقون، قاله السدي، والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم»^(٣).

٣. الدفع بإثارة الشهوات وإشاعة الفواحش.

الموحدين وحزب المشركين، فعملت قريش على مجابهة هذه الدعوة بأساليب شتى، منها:

• السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.
• إثارة الشبهات والدعايات الكاذبة.
• الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن.

• اضطهاد المؤمنين وتعذيبهم.
• الاعتداءات على النبي صلى الله عليه وسلم.

• مساومة النبي صلى الله عليه وسلم على ترك دعوته.

• مقاطعتهم للمسلمين ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب^(١).

٢. الدفع بإثارة الفتن والشبهات.

وهذا هو لون من ألوان الدفع بالمكر والخديعة، وهو ما يهدف إليه الكافرون ومنافقو أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً وابتغاء للفتنة للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَاقِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفَرُوا بآخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ وَبِنِكَرٍ قُلْ إِنْ أَلْهَيْتُ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُجَازِيَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٠٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٥٣.

(١) انظر: الرحيق المختوم ص ١٠٠-١٤٠.

وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَابَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ
ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ومن ذلك الأذى اللفظي الذي أسمعه
الكافرون والمنافقون للمؤمنين فيما لقيه
أتباع الرسل من أقوامهم في كل زمان
ومكان، نعتهم إياهم بالسفهاء أو الأراذل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ
النَّاسُ قَالُوا اتَّبِعُوا آلَ آبَائِكُمْ كَمَا
أَسَفَهْتُمْ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ
ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ [البقرة: ١٣-١٤].

ففي هذه الآيات يحكي لنا القرآن
الكريم ما يدور بين المؤمنين والمنافقين
من حوارات حول الإيمان الحقيقي المبني
على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم
ولزوم منهجه، وهو ما عليه المؤمنون
الصادقون، كما يحكي لنا كذلك جواب
هؤلاء المنافقين للمؤمنين، وما يشتمل عليه
من سخرية واستهزاء وأنفة من اتباع ما عليه
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولزوم
سبيل المؤمنين.

«وإنما عنى المنافقون بقليلهم: أنؤمن كما
آمن السفهاء - إذ دعوا إلى التصديق بمحمد
صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند
الله، والإقرار بالبعث، فقليل لهم: آمنوا كما

من أحبث صور الدفع لدى الكافرين
الدفع بإفساد المؤمنين بإشاعة الفواحش
فيهم ودعوتهم للميل عن دينهم الحق الذي
يأمرهم بزكاة نفوسهم واستقامة أخلاقهم
إلى سبيل الفواحش والشهوات.

فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ
عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ
يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

ومن ثم توعدهم الله تعالى على ذلك
بعذاب أليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

٤. الدفع بإسماع المؤمنين الأذى
والظعن فيهم.

وهذه أيضًا صورة من صور الدفع التي
حكاها القرآن عن المشركين مما مر به النبي
صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقد كانت
سنة النبي صلى الله عليه وسلم خير تطبيق
لحكمة الدعوة في دفع هذا الأمر؛ امتثالاً
لتوجيهات القرآن الكريم في ذلك، فقد كان
النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينالهم
الأذى من المشركين في بادئ الأمر، وكانت
التوجيهات القرآنية تأمرهم بدفع ذلك بالعفو
والصفح بما يناسب تلك المرحلة ﴿فَاعْفُوا
وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٩].

قال تعالى: ﴿لَتُجْلِبُوا فِي آيَاتِنَا

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلِ
مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخَّرُوا مِنْهُمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي
الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكْذِبِينَ ﴿[الأنعام: ١٠-١١].

وقد كان هذا دأب المنافقين كذلك.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ
الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي
الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ
فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿[التوبة: ٧٩].

وقديماً سخر الكافرون من نوح عليه
السلام، وحكى القرآن سخرتهم هذه فقال:
﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ
قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ
مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوتُ مَنْ
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿[هود: ٣٨-٣٩].

ومن ذلك استهزاء بني إسرائيل بنبيهم
موسى عليه السلام فيما حكاها الله تعالى
عنهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنَّى نَذْبَحُهَا هُزُوًّا قَالَ
أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿[البقرة: ٦٧].

فالحقيقة أنهم هم الذين يستهزئون بنبي
الله عليه السلام؛ إذ ينسبون إليه الاستهزاء
بهم فيما يبلغ من كلام ربه.

آمن الناس - أصحاب محمد وأتباعه من
المؤمنين المصدقين به، من أهل الإيمان
واليقين، والتصديق بالله، وبما افترض
عليهم على لسان رسوله محمد صلى الله
عليه وسلم وفي كتابه، وبالיום الآخر؛ فقالوا
إجابة لقاتل ذلك لهم: أنؤمن كما آمن أهل
الجهل، ونصدق بمحمد صلى الله عليه
وسلم، كما صدق به هؤلاء الذين لا عقول
لهم ولا أفهام؟^(١)

بل زادوا على ذلك بنعت الرسول صلى
الله عليه وسلم نفسه بالسحر والجنون
والضلالة والسفاهة وغير ذلك، والآيات في
ذلك كثيرة معلومة.

بل أعظم من ذلك تناولوا على عرض
النبي صلى الله عليه وسلم إفكاً وزوراً، كل
ذلك لإضعاف المؤمنين، وتوهين عزائمهم.
٥. الدفع بالسخرية من المؤمنين.

من وسائل الدفع لدى الكافرين التي
يريدون بها إضعاف عزائم المؤمنين
السخرية الدائمة من المؤمنين، ومما هم
عليه من الحق والهدى؛ بل السخرية من
رموزهم وقادتهم، فلا يزال الكافرون قديماً
وحديثاً يسخرون من الأنبياء والصالحين،
ويصورونهم في صورة قبيحة منكرة مخالفة
لحقيقتهم الناصعة؛ حتى صار ذلك سنة ثابتة
مع جميع المرسلين.

(١) جامع البيان، الطبري / ١ / ٢٩٣.

هَلْ تَنْدُكُرُ عَلَى رَجُلٍ يُبَيِّنُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مَرْقٍ
إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَرَأَيْتَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ
وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ [سبأ: ٧-٨].

قال الألوسي: «أخرجوا قولهم: ﴿هَلْ تَنْدُكُرُ عَلَى رَجُلٍ يُبَيِّنُكُمْ﴾ [سبأ: ٧] مخرج الظن والسخرية متجاهلين برسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكلامه من إثبات الحشر والنشر، وعقبوه بقولهم: ﴿أَفَرَأَيْتَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أضربوا عنه إلى ما هو أبلغ منه ترقياً، من الأهون إلى الأغلظ من نسبة الجنون إليه، وحاشاه صلى الله عليه وسلم، فكأنهم قالوا: دعوا حديث الافتراء؛ فإن ههنا ما هو أطم منه؛ لأن العاقل كيف يحدث بإنشاء خلق جديد بعد الرفات والتراب»^(١).

ولا تزال محاولات الاستهزاء والسخرية بالأنبياء والرسل ورموز الدين الحق مستمرة إلى يومنا هذا، وسوف تستمر إلى قيام الساعة؛ لأنها من صور تلك السنة الماضية سنة التدافع بين الحق والباطل.

٦. الدفع بالمبالغة في العدة المادية. يعتمد الكافرون والمنافقون في دفعهم للمؤمنين على الأسباب المادية البحتة؛ وذلك أمر بدهي؛ حيث إنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ ولأنهم لا ينتظرون عوناً ولا مدداً من الله تعالى؛ تراهم يبالغون في

(١) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٢٦٠.

ومن حوار الاستخفاف: استخفاف فرعون بقومه في حواره إياهم وتعتته فيما اشترطه في نبي الله موسى عليه السلام من التحلي بمظاهر الزخرف والزينة الفارغة.

قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَرَأْنَا حَيْرِينَ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُفْتَرِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيقِينَ ﴿٥٤﴾ [الزخرف: ٥١-٥٤].

وقد سخر المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا رَبَابًا وَعِظْمًا أَوِنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٨﴾ [الصافات: ١٢-١٧].

وأمثلته كثيرة في القرآن، منها ما حكاه القرآن من حوار المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخُذُ مِنكَ إِلَّا هُزُوًا أَلْهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا فِيهِ كَادَ لَيْضُنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤١﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

إعداد العدة المادية إلى أبعد الحدود؛ وقد أخبر الله عن المنافقين الذين يبتغون الكفر بقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَافُؤُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ مُنَّمٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُم كَارِهُونَ ﴿التوبة: ٤٦-٤٨﴾.

٧. الدفع بالمبالغة في العدة البشرية. ويتفرع مما سبق من عدم الإيمان والتعويل على الأسباب المادية: المبالغة في الحشد، وإعداد العدة البشرية - مهما كانت قوتهم وسلطانهم-؛ لما يسيطر عليهم من هلع وفزع وحذر شديد.

قال تعالى عن فرعون وحشده السحرة لمواجهة موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأِينَ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذِهِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿الشعراء: ٥٣-٥٦﴾.

«يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأِينَ﴾ من يحشر له جنده وقومه» (١).

ولأن أعداء الحق يعتمدون في دفعهم على الأسباب المادية وقوة العدد؛ ونظرًا

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/٣٥٠.

لكثرة الباطل وأهله؛ فهم يغترون بتلك الكثرة، ويعولون عليها، ولكن: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿المجادلة: ٢١﴾.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَبُولُونَ الذُّبُرُ ﴿[القمر: ٤٤-٤٥].﴾

ومع هذا الحشد والجمع من الكافرين، لا يسع المؤمنين إلا الاعتصام بالله، والاحتماء به، واللجوء إليه.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿آل عمران: ١٧٣﴾.

٨. الدفع بالتحالفات السياسية.

ويتفرع مما سبق من عدم الإيمان والتعويل على المبالغة في الحشد، وإعداد العدة البشرية: عقد التحالفات السياسية لمداخلة الإسلام وأهله؛ فيجمعون لذلك أحزابهم وحلفاءهم.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿[الأحزاب: ١٠-١١].﴾

شديداً، ثم إن الله تعالى برحمته أرسل على صحيفة قريش الأرضة فلم تدع فيها اسماً لله إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، وأخبر بذلك رسوله، وأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو طالب، واستنصر به أبو طالب على قومه^(٢).

وواضح من هذه المقاطعة أن هدفها هو إرغام المسلمين على التراجع عن دينهم وعقيدتهم، أو على الأقل إضعافهم، ومحاصرتهم؛ لئلا ينتشر دينهم؛ لما رأوا من تأثير الدعوة الإسلامية على القلوب والعقول والفطر السليمة.

وهذا هو ما يقوم به أعداء الإسلام في كل زمان ومكان؛ لتحقيق تلك الأهداف الخبيثة.

١٠. الدفع بالمقاطعة الاجتماعية.

لم تكن مقاطعة الكافرين للمسلمين في شعب أبي طالب مجرد مقاطعة اقتصادية فقط، بل كانت مقاطعة اجتماعية شاملة شملت كذلك ألا ينكحهم أو ينكحوا منهم كذلك؛ وذلك لما يعلمون من تأثير ذلك في زيادة عزلة المسلمين وحصارهم.

بل أعظم من ذلك وقعت المقاطعة الاجتماعية، التي تخبطت مجرد المقاطعة

«عن ابن إسحاق، قال: ثني يزيد بن رومان، في قول الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾، والجنود: قريش وغطفان وبنو قريظة، وكانت الجنود التي أرسل الله عليهم مع الريح: الملائكة»^(١).

٩. الدفع بالمقاطعة الاقتصادية.

من وسائل الدفع لدى الكافرين للمؤمنين ما حكته كتب السيرة من المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وحصارهم في شعب أبي طالب؛ وذلك أنه: «حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة آذاه قومه وهموا به، فقامت بنو هاشم وبنو المطلب؛ مسلمهم وكافرهم، دونه، وأبوا أن يسلموه، فلما عرفت قريش أن لا سبيل إلى محمد صلى الله عليه وسلم معهم اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني المطلب أن لا ينكحهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم.

وعمد أبو طالب فأدخلهم الشعب شعب أبي طالب في ناحية من مكة، وأقامت قريش على ذلك من أمرهم في بني هاشم وبني المطلب سنتين أو ثلاثاً، حتى جهدوا جهداً

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/٥٩٤، وأصله في صحيح البخاري رقم ١٥١٣، وصحيح مسلم رقم ١٣١٤، عن أبي هريرة.

(١) المصدر السابق ٢٠/٢١٧.

فَأُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾
[البقرة: ٢١٧].

وهم لا يكتفون في ذلك بمجرد القتال
والقتل؛ بل يتفنون في التعذيب بالمؤمنين،
وإهلاكهم والقضاء عليهم بشتى الصور،
والتاريخ قديماً وحديثاً خير شاهد على
ذلك، وقد سجل القرآن والسنة فتنة الكافرين
للمؤمنين بالإحراق في الأحاديث في سورة
عظيمة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن
عليها، هي سورة الأخذود (البروج).

وقد سجلت كتب التاريخ جرائم ومجازر
التتار والصليبيين واليهود للمسلمين على
مر التاريخ إلى يومنا هذا، وليس ما يحدث
للمسلمين في بورما بعيد.

ثانياً: وسائل الدفع لدى المؤمنين:

١. لزوم الإيمان والتقوى.
٢. الاعتصام بكتاب الله وسنة
رسوله صلى الله عليه وسلم.
٣. الاجتماع ونبذ الفرقة.
٤. الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر.

وثمة آيات عظيمة في سورة آل عمران قد
جمعت تلك الوسائل كلها؛ وذلك في قوله
تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ

إلى الإيذاء والاضطهاد الديني في محيط
الأسرة؛ حيث يشير القرآن إلى مجاهدة
الآباء أبناءهم الذين أسلموا لردهم عن
دينهم.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا
وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ
حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلْتُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ
أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِنْ
جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤-
١٥].

١١. الدفع بقتال المؤمنين
وإهلاكهم والقضاء عليهم.
من أعظم وسائل الدفع لدى الكافرين
للمؤمنين هو القتال، والحق أن قتال
الكافرين للمؤمنين ليس مجرد وسيلة، بل
هو وسيلة وغاية في الوقت نفسه؛ فهو وسيلة
من أعظم وسائلهم لرد المؤمنين عن دينهم،
وفتنتهم في عقيدتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ
يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ
يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ

والتمسك بالكتاب والسنة، ولا ينجع ولا يأتي بأثره ويكون له قوة في الدفع، ونكاية في العدو، إلا باجتماع الكلمة؛ لذا تأخر بعد الوصية بها.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَ فِيكُمْ فِتْنَةٌ فَآمِنُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿الأنفال: ٤٥-٤٦﴾.

ومن المعلوم أن تغيير الفساد والمنكر أصل عظيم من أصول هذا الدين له أثره الماضي في صلاح المجتمع، ودفع صور الفساد التي ييشها أعداء الإسلام في مجتمعاتنا؛ ولذا فهو أحد أربعة أسس يقوم عليها بناء المجتمع المسلم.

ونستطيع أن نتبين ذلك إذا تأملنا سورة قصيرة من سور القرآن كسورة العصر؛ حيث تبين أن معالم الفلاح والنجاح للفرد والمجتمع المسلم إنما ترجع إلى أربعة أركان أساسية، هي: الإيمان بالله، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

والتواصي بالحق إنما هو لزوم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي هو عماد التغيير والإصلاح، وهو قرين الإيمان بالله تعالى، ودليل عليه؛ ولذا جعله النبي صلى الله عليه وسلم في علاقة مطردة مع

وَلَا تَمُؤْنٌ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿آل عمران: ١٠٢-١٠٥﴾.

والتأمل في هذه الآيات يجد أن الله تعالى قد بين فيها أهم سبل الدفع ووسائله وأسس العظيمة التي ينبغي أن يقوم عليها، وهي:

١. لزوم الإيمان والتقوى والمحافظة على الإسلام والتمسك به والموت عليه.
٢. الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك بالتمسك بهما وعدم الحيدة عنهما إلى ما سواهما من سبل البدعة والضلالة.
٣. الاجتماع ونبذ الفرقة؛ وذلك بالاجتماع حول أصول الدين وثوابته، التي أسسها الكتاب والسنة؛ ولذا جعل الله تعالى التمسك بكتابه، وسنة نبيه هما مناط الاجتماع والاعتصام.
٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أعظم برهان على صدق الاعتصام

السَّيِّئَةُ أَدْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَلِلَّهِ الَّذِي بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ بُولِي حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا
إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾
[فصلت: ٣٤-٣٥].

وذلك في حال السلم، أما في حال الحرب؛ فقد نهى رسولنا الكريم عن قتل الطفل أو المرأة أو الشيخ الكبير أو من لا يقاتلنا:

عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش، أو سرية، أو صباه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصالٍ -أو خلالٍ- فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفية شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم

الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقابٍ)، وقال عمرو: عن هشيم، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدر أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقابٍ)، قال أبو داود: ورواه كما قال خالد أبو أسامة: وجماعة، وقال شعبة فيه: (ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أكثر ممن يعملهم) ^(١).

٥. الدفع بالتي هي أحسن.

لعل من أجمل ما يتميز به أهل الإيمان في دفعهم للباطل وأهله أنهم يدفعون بالتي هي أحسن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً؛ فما أمكن دفعه من الفساد بأخف الوسائل؛ لم يجز تعد هذه الوسيلة إلى ما هو أعظم منها فتكاً وإهلاكاً، كما هو مشاهد من فعل أهل الباطل من إسرافهم في استعمال القوة المفرطة والميل إلى الإبادة العامة للإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿أَدْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةُ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].
وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/١٢٢، رقم ٤٣٣٨. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٩٧٣.

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

بل حث على دفع باطلهم العقدي والفكري بالجدال بالتي هي أحسن كذلك، حيث ينبغي منهج الحوار في الإسلام على أسس أخلاقية قويمه، تلتزم الصدق والعدل والإنصاف، وتحترم الآخر، وتعطيه حقوقه في الحوار كاملة، وتعترف بإنسانيته، وتجعله هو والطرف الآخر على حد سواء، ولا تبيح سبه، أو إهانته أو السخرية منه -إلا أن يبدأ هو بذلك-، وترغب في العفو عن إساءته، وعدم مقابلة السيئة بمثليها؛ بل ترغب في دفعها بالتي هي أحسن، مع التزام كل ما هو متقرر من آداب الحديث والحوار والمجادلة.

وجماع ذلك في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَاتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال ابن جرير رحمه الله: ﴿وَجَدِّ لَهُمُ الْبَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها، أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم

أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم^(١).

عن ابن عباس، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال: (اخرجوا بسم الله، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع)^(٢).

فترى كيف ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغدر، والتشفي بالأعداء، والتمثيل بجثثهم، وعن قتال من لا يقاتل من الضعفاء كالنساء والأطفال والعجزة، وانظر كيف يجعل النبي صلى الله عليه وسلم الدفع بالقتال آخر الدواء، وكأنه لا يقدم عليه إلا مضطراً؛ فأين ذلك مما يشوه به أعداء الإسلام صورة النبي صلى الله عليه وسلم وصورة الإسلام والمسلمين.

فإن لم يكن بد من القتال والقتل؛ فقد نهى رسولنا الكريم عن التعذيب والتمثيل، وأمر بإحسان القتل حتى في الحيوان، فما بنا بالإنسان الذي كرمه الله على العموم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمراء على البعث، رقم ١٧٣١، ٣/١٣٥٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/٤٦١، رقم ٢٧٢٨. وحسنه المحقق.

رسالة ربك»^(١).
وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِيهِمْ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَأَمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه؛ لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلاً^(٢).

وقوله: ﴿وَقُولُوا ءَأَمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه؛ لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلاً^(٢).

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف، وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن؛ ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحيثئذ ينتقل من الجدل إلى الجلال، ويقاثلون بما يردعهم ويمنعهم، قال مجاهد: ﴿إِلَّا الَّذِينَ

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف، وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن؛ ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحيثئذ ينتقل من الجدل إلى الجلال، ويقاثلون بما يردعهم ويمنعهم، قال مجاهد: ﴿إِلَّا الَّذِينَ

وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحيثئذ ينتقل من الجدل إلى الجلال، ويقاثلون بما يردعهم ويمنعهم، قال مجاهد: ﴿إِلَّا الَّذِينَ

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٨٣.

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٢١.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

«قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك، يا محمد، من المشركين، الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، أحد؛ ليسمع كلام الله منك - وهو القرآن الذي أنزله الله عليه - ﴿فَأَجِرْهُ﴾، يقول: فأمنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه ﴿ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَهُ﴾، يقول: ثم رده بعد سماعه كلام الله - إن هو أبى أن يسلم، ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن - إلى مأمنه، يقول: إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: تفعل ذلك بهم، من إعطائك إياهم الأمان ليسمعوا القرآن، وردك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم، من أجل أنهم قوم جهلة، لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوزر والإثم بتركهم الإيمان بالله»^(١).

فأوجب إجارته ممن يتعرض له بسوء، وتأمينه حتى يستطيع أن يسمع ويعقل كلام الله بأمان تام، بل أوجب تأمينه - بعد إسماعه ومحاورته - إلى المكان الذي يأمن فيه على

نفسه، ويلحق بديار أهله من المشركين. ٦. الدفع عن طريق رد الشبه وكشف حقيقة الباطل عن طريق وسائل الإعلام المختلفة والحوار والمحاورة والمناظرة.

معرفة سبيل المجرمين بهدف الحذر منها، وكشفها وبيانها وإبطالها من أوجب الواجبات لمن انتصب للدفع عن الإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٥٥].
«قال: لتعرفها»^(٢).

وإذا كانت استبانة سبيل المجرمين من واجبات الدين، ومن مهمات الدفع؛ وجب على المسلمين الإفادة من كل وسيلة صالحة لذلك، سواء عن طريق الكلمة المكتوبة، أو المسموعة، أو المرئية، سواء بكتاب أو جريدة أو مجلة أو إذاعات وفضائيات ومواقع الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، وغير ذلك من الوسائل الإعلامية العديدة التي يعج بها العصر الحديث، وبرع أعداء الإسلام في استخدامها والإفادة منها؛ لمدافعة الدين الحق وأهله.

وقد بينا فيما سبق في التعريف بمصطلح الدفع والمصطلحات القرية، ما هو قريب

(١) جامع البيان، الطبري ١٤ / ١٣٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١ / ٣٨١.

بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكان ما ترمونه به نضح النبل^(١).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً، يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ينافح، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاحر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(٢).

٧. الأخذ بما أمكن من أسباب القوة البشرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية.

مما لا شك فيه أن الأخذ بأسباب القوة المختلفة، لا سيما القوة العسكرية من أهم آلات الدفع في معركة الإسلام مع قوى الشر المختلفة، ولا نكون مغالين إذا قلنا: إن كثيراً من صور الانحراف الفكري لدى كثير من مفكري المسلمين إنما يرجع سببه إلى الهزيمة النفسية، التي ترجع إلى انبهارهم

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٤٧/٤٥، رقم ٢٧١٧٤.

وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٦٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر رقم ٢٨٤٦.

قال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب». وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٨٦٥.

من مصطلح الدفع، كالحوار والمجادلة والمحاجة والمناظرة، وذكرنا الفروق بينها، وبعض ما يستدل به على ذلك من كتاب الله تعالى.

والمقصود هنا بيان أن هذه الوسائل هي من وسائل الدفع المهمة، بل لعلها تكون هي وسيلة الدفع الوحيدة المتاحة حينما تعجز الآلة العسكرية؛ لضعف الإمكانيات، أو لعدم تهيؤ الظروف لها.

وقد امتدح القرآن الشعراء الذين ينتصرون بشعرهم لدين الله تعالى؛ حيث استثناهم من الذم الذي ألحقه بالشعراء، حيث نعتهم بالغواية والضلال والإضلال، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾، أي: انتصروا لدينهم وعقيدتهم وأعراض المسلمين بشعرهم.

قال تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَلْمِعُهُمُ الْفَآؤِنَ ﴿٣٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٢٥﴾ وَأَتَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦].

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن المؤمن يجاهد

بالقوة المادية والعسكرية التي عليها أعداء الإسلام.

وقد أمرنا الله تعالى أن نأخذ بكل ما نستطيعه، ويمكن أن تصل إليه أيدينا من وسائل القوة.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ. عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَمَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)^(١).

والقوة تشمل القوة المادية، والقوة العسكرية، وسائر أنواع القوة؛ لعدم الدليل على التقييد بنوع دون آخر.

٨. التحالفات السياسية.

لا يستطيع المسلمون مدافعة أعدائهم على قوتهم واجتماعهم إلا بتحالفهم واجتماعهم، وموالاته بعضهم بعضاً؛ فقد أوجب الله على أهل الإيمان الموالاتة في الدين والاجتماع والتآلف والتحالف عليه، ونهاهم عن التفرق والتخالف.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وهيجهم على فعل هذه الولاية؛ بحرص أعدائهم عليها فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ فَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

كذلك يجوز لهم بحسب المصلحة عقد المعاهدات مع غيرهم، بحسب ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، كما عاهد النبي صلى الله عليه وسلم يهود المدينة^(٢).

٩. القتال.

القتال كما هو معلوم من أعظم وسائل الدفع، وقد أصر الله تشريع القتال كوسيلة للدفع من المسلمين لأعدائهم، وأمر قبل ذلك بالعمو والصفح.

قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْرَجَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

والآيات في ذلك كثيرة، ثم نسخت تلك الآيات بآية السيف، والآيات المشابهة لها، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/٥١٣، السيرة النبوية، ابن كثير ٢/٣٤٢.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم ٢٦٦٤.

جَلَّ اللَّهُ لَكَرِينًا ﴿النساء: ٥﴾.

فهذا ثمامة بن أثال - ذلك الصحابي الجليل - بعدما أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة؛ ها هو يسن للمسلمين بإقرار النبي صلى الله عليه وسلم له سنة المقاطعة الاقتصادية للمشركين والكافرين المحاربين للإسلام؛ وذلك أنه: (لما قدم مكة قال له قائل: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله، لا يأتكم من اليمامة حبة حنطة، حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم) (١).

١١. المقاطعة الاجتماعية.

من أهم الأسس التي يقوم الدفع عليها عند المؤمنين، براءتهم من الكافرين، ومما هم عليه من اعتقاد فاسد يبني على الكفر بالله واليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، ٥/١٧٠، رقم ٤١١٤.

بالصبر، واحتمال الأذى من أعداء الدعوة في مرحلة البيان؛ حتى تكسب تعاطف الناس، وحتى تتمحص رسالتها للكشف عن الحقيقة والدعوة إلى الحق، وحتى لا يظن بها الظنون بابتغاء نوع من المنافع الدنيوية المادية العاجلة، ومع ذلك فهي مأمورة بالأخذ بأسباب القوة في جميع الأحوال لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولكن في مرحلة البيان لا يزيد الأمر عن إعداد القوة دون استخدامها، أو إظهارها، بخلاف مرحلة التمكين، واستقرار الدولة الإسلامية؛ فإنها يشرع لها استخدام القوة للدفاع عن الدعوة الإسلامية في وجه أعدائها والتمكين لها، وصد ودحر كل من يقف في سبيل إيصالها إلى الناس، كل ذلك بما لا يتناقض مع قواعد الحكمة، والنظر في ميزان المصالح والمفاسد، وعدم التعجل لكسب أي مكاسب سياسية أو مادية، بل المقياس الأول هو هداية الناس، وتبليغ هذا الدين.

١٠. المقاطعة الاقتصادية.

يتخذ المؤمنون المقاطعة الاقتصادية سلاحًا ووسيلة من أهم وسائل الدفع لأعدائهم، بحسب ما تقتضيه الحاجة والمصلحة؛ فمعلوم أن المال قوام الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمْ الَّتِي

عواقب ترك الدفع

أولاً: الخذلان:

إذا ترك المسلمون القيام بواجبهم في الدفاع عن عقيدتهم ومقدساتهم فإنهم بذلك يقضون بالغلبة لأعدائهم على أنفسهم. لكن لا بد أن يقوموا نصرته لله تعالى ولدينه، لا حماية لجنس أو قومية أو أي شيء غير نصرته دين الله تعالى؛ فحينئذ يأتي نصر الله.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ أَنْ تَضُرُّوهُمْ﴾ [محمد: ٧].

فإذا نصر المسلمون دينهم وشريعتهم بالقيام بما افترضه الله عليهم والحماية له والذود عنه نصرهم الله، وإلا فالخذلان المبين بأن يكلمهم لأنفسهم، وإن خذلهم فمن ذا الذي يملك لهم نصرًا من بعده سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمُ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ثانيًا: الذلة والهوان بعلو الكافرين على المؤمنين:

من المعلوم أن قيام المسلمين بواجبهم في الدفع إزاء الكافرين يحقق نوعًا من

أَوْلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿

[المجادلة: ٢٢].

فبين الله تعالى أن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يجتمع مع موادة من حاد الله ورسوله، ولو كان من الأصول أو الفروع أو ذوي الأرحام المقربين.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ءَوْلِيَاءَ إِنْ أَسْتَجَبُوا لَكُفْرًا عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّكُمْ فَاؤُولَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

والآيات في ذلك كثيرة.

فقضت سنة الله تعالى على عباده إذا تركوا ما كلفهم به من الدفع، والجهاد لأعدائهم؛ أن يضرب عليهم ذلاً، لا ينزعه حتى يرجعوا إلى دينهم.

ثالثاً: الاستبدال:

ومن السنن المترتبة على ترك الدفع كذلك استبدال الله تعالى بمن ترك الدفع والجهاد في سبيله من يقيم دينه، ويعطي ولاءه ومحبه للإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَآئِمَةً ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

توازن القوى؛ فلا يتمادى أهل الكفر في فسادهم وطغيانهم واستضعافهم واستذلالهم للمؤمنين، وإلا يأتي الله بأمره، وتمضي سنته في معاقبة الفاسقين وضرب مذلة الأسر والهوان عليهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسٰكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، أي: تستطيعونها، يعني: القصور والمنازل، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾، فانتظروا، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ﴾ قال عطاء: بقضائه، وقال مجاهد ومقاتل: بفتح مكة، وهذا أمر تهديد، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰسِقِينَ﴾، الخارجين عن الطاعة^(١).

وعن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)^(٢).

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٢٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة ٣/ ٢٧٤، رقم ٣٤٦٢.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٢٣.

التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ
لَا كَلُومًا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ تَنْهَمُ أُمَّةٌ
مُقْتَصِدَةً وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْمِلُونَ ﴿المائدة: [١٦٦]

[١٦٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ
ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدُ اسْتَفْتُوهُ عَلَى
الطَّرِيفَةِ لَأَسْقَيْنَهُم مَّاءً عَذْقًا﴾ [الجن: ١٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ
صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ
حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فهذه الآيات وأمثالها كثير يدل على
العاقبة الحسنة، والثمرة اليانعة للتوحيد،
وسلامة الاعتقاد الناتجين عن دفع المؤمنين
الكفر والكافرين، وسائر صور الفساد في
الأرض.

ثانياً: حرية العبادة وتحصين أماكنها:

من أعظم الظلم الذي يمارسه أعداء
الإسلام - إذا تسلطوا على ديار الإسلام - أن
يمنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه أو
يهدموها بالكلية.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسْجِدَ
اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا

نتائج الدفع

أولاً: حرية المعتقد و حرية العبادة:

إن من أهم ثمرات الدفع المأمور به
شرعاً استقامة العقيدة وسلامتها، وخلوها
من الآفات التي تشوبها من التوجه بالدعاء
أو القصد أو الاستعانة إلى غير الله تعالى،
أو التحاكم إلى غير شرعه، أو جحود شيء
مما أنزل، أو وجود تصورات واعتقادات
تخالف العقيدة الصحيحة التي تركنا عليها
النبي صلى الله عليه وسلم.

وإن مجتمعاً مثل هذا تسوده عقيدة
إيمانية راسخة، ويقوم على توحيد الله
تعالى، وإخلاص القصد له، لا شك أنه
مجتمع تنتزل عليه رحمة الله وبركاته،
ويستخلف أهله، ويمكنون في الأرض، كما
وعد الله تعالى حيث قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ
فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم
مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ
بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فتأمل قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا
يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾؛ تعلم أن تلك الجائزة
إنما هي ثمرة التوحيد وعاقبته الحميدة.
وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آقَامُوا

أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا حَافِينَ
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿البقرة: ١١٤﴾.

ولعل من أهم آثار الدفع وعواقبه الحميدة أن يأمن الناس على دينهم وعقيدتهم، ويتمكنوا من أداء عباداتهم وشعائرهم دون خوف أو وجل أن يمنعوا منها، أو تهدم دور عبادتهم؛ إذ إن هذا الدفع لأعدائهم هو الذي يمنع ذلك كله.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَدَّتِ صَوَابِعُ وَيَبِيعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فبالجهاد والدفع تعود للمساجد هيبتها وعزتها، كما أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ أَيْدِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذَكَّرَ فِيهَا اسْمَهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٦﴾ رِجَالٌ لَا لُتْهِمِهِمْ تَجَدُّةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

ثالثاً: إحقاق الحق ورفع الظلم، وخذلان الباطل وأهله:

من أهم آثار الدفع كذلك أن يحق الحق،

ويبطل الباطل؛ فتعود الحقوق لأصحابها، ويرفع الظلم عن العباد والبلاد، وقد بين القرآن أن من أهم مقاصد الدفع إحقاق الحق وإبطال الباطل.

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥-٨].

فأخبر سبحانه أنه ما أخرج رسوله من بيته، ولا عرض المؤمنين لهذه الفتنة الشديدة -مع قلة عددهم وعتادهم-، ولا أغرى الفريقين بالقتال؛ إلا لهذه الغاية العظيمة، وهي إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

ولعمر الله إنها لسنة ماضية، أن يقضي الحق على الباطل؛ فتكون الغلبة له في النهاية، وذلك أن الباطل لا يثبت أمام الحق. قال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فالحق هو الذي يبقى، وهو ما ينفع الناس، والباطل يذهب جفاء.

قال سبحانه: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ

أَوْدِيَةً يَقْدِرُهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا
يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ
جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿ [الرعد: ١٧].

رابعاً: شفاء صدور المؤمنين:

ومن نتائج الدفع الحميدة كذلك شفاء
صدور المؤمنين مما حل بهم من كيد
أعدائهم وظلمهم لهم، والنيل من نفوسهم
وأعراضهم وأموالهم.

قال تعالى: ﴿فَنَلَّوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ
بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ صُدُورِ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾
وَيَذْهَبُ غَيِّظٌ قُلُوبُهُمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ [التوبة: ١٤-١٥].

موضوعات ذات صلة:

الأذى، الإصلاح، التغيير، الجهاد،
السياسة، الضر